

المعنى الحقيقي لعيد الميلاد*

الميتروبوليت نيقولاوس مطران ميسوغيون

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في هذه الأيام، تبدأ فترة صوم الميلاد، فترة الصوم والتحضير لعيد التجسد الإلهي العظيم. لكن ما هو المعنى الحقيقي لعيد الميلاد؟ كيف يجب أن نختبر ميلاد المسيح؟ هل يتعين علينا القيام بشيء مختلف قليلاً، وأكثر جوهرية في الفترة التي تنبسط أمامنا؟ هل ينبغي أن يطفى الاهتمام بالاحتفال على جوهره أحياناً؟

كتب الرسول بولس إلى تيموثاوس "الله ظهر في الجسد" (تيموثاوس الأولى ٣:١٦). الله يصير إنساناً وليس ملاكاً أو أي شيء آخر؛ يلبس طبيعتنا البشرية، يكرّمها ويمجّدها. "الله صار إنساناً" لكي يصير الإنسان إلهاً. هذه هي وجهتنا. إن كنيسةنا مندمجة في هذا المنطق. على خلفية هذه الحقيقة يفهم عيد الميلاد. كثيراً ما نقول لأنفسنا لتبرير أنفسنا: "أوه، أنا أيضاً إنسان". ما مدى خطأ مثل هذا التصوراً! ليس هدفنا أن نظل بشرًا، ولكن هدفنا هو تطعيم وحشية الطبيعة البشرية وإخراج الشجرة الشائكة من الإنسان المستنير، الإنسان الذي يتمتع بصفات إلهية.

لذلك يجب أن نخفّ أرواحنا قليلاً؛ يجب أن نرتقي أعلى قليلاً. الكنيسة دائماً، عندما تريد أن تعرّفنا بالعالم الروحي، تتحدانا أن "نبكر" ونترك الوضع الذي نحن فيه ونصعد إلى الجبال الروحية. تدعونا إلى التخلص من بعض الأعباء، وهذه الأعباء هي خطايانا وأهواؤنا وظلمة قلوبنا. في هذا الوقت، فلنذهب إلى الاعتراف، ليس فقط لنسرد كلاماً نحن مضطرون لقوله، بل لأن روحنا تحتاج إلى الانحناء تحت بطرشيّل المعرّف، قماشة السيد، وأن تقرّ أمام المسيح بخطاياها وعارها. فلنبادر بتوبة وبتواضع ونفتح قلوبنا لله. فلنسمّ الكبار الذين يستعبدون نفسنا، والذين نعتبرهم صغاراً وماكرين، والذين لا نعرف بهم عادة حتى في أنفسنا ونختبئ عنهم خوفاً من أن نشعر بخيبة أمل. فلنذهب ونعترف بكيف نعيش، بماذا نشعر، وبالأفكار التي تزعج روحنا؛ أننا لا نقبل الاستسلام، ننتقد باستمرار، نشعر بالتعالي، من السهل أن نكذب، ضعيفو الإيمان، دنسون أمام الله، "وجهاً لوجه"، وأول ما ينبغي أن نتخلص منه هو خطايانا.

هناك أمر ثانٍ: مخاوفنا. فعقولنا محشوة بالأفكار المزعجة. نحن نفكر باستمرار في أشياء لا تصدق ونضخمها لأننا نعتقد أنه مع المزيد من التفكير نجد الحلّ. ليس الأمر كذلك. نحن نفقد الحلّ بكثرة التفكير. الله لا يقترب منه المفكرون. الذين يبلغون إلى الله هم الذين يصلون، والذين يضعون فيه رجاءهم وتستريح قلوبهم إليه. لهذا هو يطلب منّا ألا نهتمّ كثيراً. سوف يأتي الميلاد وضغط

الاهتمامات سوف يكون كبيراً جداً: كيف سنحتفل؟ ماذا سنُعد؟ أي هدايا سنشتري؟ من الحسَن تنظيم كل هذه التفاصيل باكراً وبأبسط ما يكون، حتى لا يُفقدنا اهتمامنا بهذه الأشياء ما هو أكثر أهمية. لذا علينا، إلى جانب حمل خطايانا، أن نطرح عنّا ثقل اهتماماتنا. "لنطرح عنّا كل اهتمام دينوي" بحسب ما نرتل في القداس الإلهي. لنطرح إذاً كل هذا جانباً لفترة، حتى نبقى في الأساسيات والضروريات. وأمر ثالث، مهم جداً: مَنْ هم قادرون بيننا، وكلنا قادرون بشكل أو بآخر، علينا الافتكار بأخينا. ذاك الذي قد يكون بلا عقل، أو قد يكون مريضاً، كم هو جميل أن لا نكتفي بالقول "آه! الرب يعينه"، أو "فليساعده الآخرون"، بل أن نعتبر أن حاجته في جيبنا! يا لها من نعمة أن نتحمل القليل من الأعباء المادية عن الآخرين، إذا استطعنا وإذا كانت لدينا هذه القدرة! كم هو جميل، بدلاً من إهدار مقدراتنا المادية في الهدايا الدنيوية الجوفاء يميناً ويساراً، أن نعطي من خلالها بعض مشاعر المحبة لأهداف مقدسة، لإخوتنا المحتاجين، حتى بهذه نعمل شيئاً لأرواحنا.

إذاً، هذه الفترة المباركة التي تفتح أمامنا، تتكشف كفرصة فريدة لكل واحد منا، نتذكرها باستمرار في الأربعين يوماً القادمة، وتؤكد حياتنا كلها هذه الحاجة. يبقى أن نفتح أعيننا قليلاً، نوسّع سمعنا قليلاً، فنستمع إلى الرسائل الروحية، حتى نكون في اليوم المناسب جاهزين لأن نجد أنفسنا عقلياً في بيت لحم، ونبتهج بكل كياناتنا بولادة المسيح ربنا وإلهنا. عندها يثبت عيد الميلاد هذا أن "الله معنا"، أي أنه بيننا، وليس فقط بيننا، بل في النهاية في داخلنا "مَلَكُوثُ اللَّهِ دَاخِلَكُمْ" (لوقا ١٧: ٢١).

أطلب من الله أن يمنحنا جميعاً دون استثناء ان نستحق رؤية الرب بعد أربعين يوماً ليس فقط في مذود بيت لحم، بل بشكل أساسي متكئاً في مذود أرواحنا. آمين.

صوم الميلاد، ٢٠٢١.

أيقونة الفتية الثلاثة في الأتون، تذكرهم الكنيسة كثيراً في صوم الميلاد تذكيراً بالنعمة التي تُكتسب بالصيام (الأيقونة من مدرسة نوفغورود من القرن الخامس عشر)

* Source: Ο Μεσογαίας Νικόλαος. Το αληθινό νόημα των Χριστουγέννων. Βήμα Ορθοδοξίας. Newsroom. 17/11/2021. <https://www.vimaorthodoxias.gr/mitropoleis/o-mesogaias-nikolaos-gia-to-alithino-noima-ton-christoygennon/>

